

روح الكفاح والخشونة

وقاية من الانحلال وحافز إلى الكمال

الحياة في جميع أطوار نشوتها وارتقائها جهاد وصراع ؛ البقاء فيه للأصلح ، والغلبة للأصبر على الكفاح ، ولم تكن - ولن تكون - متاعاً سهلاً ، ولذة قريبة ؛ ولن يكون الترف فيها وقلة الصبر على المكاره دليل نهضة ، أو حافزاً إلى كمال .

تلك حقيقة تؤيدها الطبيعة ، وبؤيدها التاريخ القديم والحديث على السواء ؛ فالنبته الخشنة مكتوب لها الحياة مهما اشتدت عليها عوادي الطبيعة وحرمتها الماء والغذاء ، وقد تنبت وتشد وحولها الحجر والصحراء ؛ والأمم الفتية الخشونة التي درجت على الحرمان تتغلب دائماً على الأمم المترهلة المترفة التي ألفت اللذة والمتاع .

فالعرب في التاريخ القديم لم يقهروا الفرس ، لأنهم أكثر مدنية وأعظم مورداً أو أكثر جنداً ، ولكنهم غلبوا لأنهم أمة فنية خشنة ، ولأن خصومهم شعب مترف ناعم ، وما كان الصوم الذي فرضه الإسلام إلا نوطاً من المرانة على تقوية الإرادة وتعود الحرمان والصبر على الجوع والعطش ، تمهيداً للجهاد ، وتقدمة للأهوال ، وإبتلاء بالحرمان الإرادى قبل الحرمان القهرى في الميدان .

والألمان لم يغلبوا الفرنسيين في التاريخ الحديث ، إلا لأب هولاء أسرفوا في المتاع والرفاهية ، فعز عليهم الصبر في المكاره ، ولانت مفاصلهم عند الصدمة الأولى ؛ وأولئك صرنا على الحرمان والخشونة ودرّبوا على الصعاب والشدائد ، وقيل لهم : إن للحياة غاية غير الطعام والشراب ، وغير المتع المنوعة للعقول والنفس .

وحسب اناس ممن يأخذون بالظواهر أن في الألمان قوة قاهرة لا تغيب ، ولا يقف في وجهها أحد ؛ وأن كل أمة - مهما عظمت - متذبذب تحت أقدامهم كما ذابت فرنسا ؛ حتى إذا اصطدموا بشعب آخردى طبيعة صلبة وأعصاب متينة لم يذب ولم يتخاذل ولكنه استقبل الماصفة على غير استعداد ، استقبالي الوائق الصابر المكافح ؛ لأن أعصابه وإرادته قد مرتتا سن قبل في ساحات الألعاب الرياضية وفي صراع البيئة الطبيعية وعادات البيئة التقليدية على نوع من المقاومة وضرب من التزال .

وأياً كانت النهاية ، فإن يكتب التاريخ أن انجلترا خارت عزيمتها لدى الصدمة الأولى كما حارت عزيمة فرنسا المريضة المنحلة ، ولن يقبل الإنجليز في ميدان الأخلاق ، وفي معاني الشرف والكرامة والبطولة ، فلو لم يكن لهم إلا بطولة لندن و بليموث وكفترى لكفاهم ذلك شهادة أمام التاريخ .

قصدت من ذلك كله إلى القول بأن روح الكفاح والحشونة ضروري لكل فرد يريد الحياة ، ولكل شعب يحب البقاء ، والحياة والبقاء لا يستحقان الذكر إن لم يكونا لا تقين بالإنسان الحر الكريم .

ولعل هذه الروح لا تنقص أحدا كما تنقص المصريين في هذه الأيام ، وفي كثير من فترات التاريخ ، فالطبيعة والمراقبة كلتاها عملت على إضعاف هذه الروح الضرورية للحياة في الشعب المصري : الطبيعة سهلة سمحة سجيحة كريمة ، لا تنحوج إلى الجهد الشديد ولا إلى الكدح المتواصل ، فالليل يفنى كل عام بلا جهد إنساني مقصود ، والتربة تثبت النبات في وفرة وفي يسر كذلك ، والسماء صافية صموك توحى بالهدوء والاطمئنان ولا ترسل عواصفها هوجاء ولا رعدا من مجرا ولا برقها مخيفا ولا سيوها حارفة : فلا ضرورة للخطر ولا الاستعداد .

هذا كله من ناحية . والعراق القديمة التي جعلت من الوادي مهد المدنية وموطن الثقافة ، من ناحية أخرى . فالخضوع لسلطان الدولة الموطد عشرات لقرون ، والأمن الذي تهبه الدولة الموطدة ، كلاهما يضمف شرة لنفوس ، ويوحى بالدعة والسكون . وتلك نعمة ونعمة في آن .

ومن هنا عملت الطبيعة الوديمة للعامة التي لا تثير في نفس روح الكفاح أو الاستعداد وعمت التربة واثيثة الاحتمعية التي توحى بالاطمئنان والخضوع والاستسلام ، على هذه الحائنة التي نشاهد فيها الشعب المصري الآن : دعة رحية ، وميل إلى المتاع السهل ، وفوقه من الجهد والكدح ، وهرب من تحمل الثباعات ، وجزع لأنه المكاره . وفوقه من التكاليف ، وحب للآمن ، فندح الأثمان ، حتى ليكاد يطبق على الغالية قول القرآن الكريم " وَلَتَجِدَنَّهُمْ حَرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ " !

ولكننا في عصر لا بد فيه من تعلم صناعة الموت لضمان الحياة ؛ ولا بد فيه من الحرمان الطويل لإدراك المتاع ، ولا بد فيه من الكدح الشاق لليل الراحة ؛ عصر لا يصبر على التواضع المترفين ، ولا يطبق المترهين الخاملين ، ولا يرحب إلا بالفلاظ الشداد !

فيلبني ، لكي نعيش ، أن نستميض عن نقص الطبيعة والعراقه بوسائل صناعية في التربية ترد إلينا شيئا من الحشونة الواجبة ، بل من التماسك الأولى فإننا نكاد نتلاشى من الميوعة ، ونداعى من الرفاهية ، وتهالك من النعومة ، بين الكادحين العاملين في شظف الحرمان .

وإذا كان الألمان قد احتاجوا إلى فرض الحرمان على أنفسهم وإلى التكاليف الشاقة في تربيتهم ، وهم سلالة قبائل خشنة كاليتون والهون . فما أحرانا نحن أن نفرض أضعاف ما فرضوه لنقاوم رخاوة الطبيعة ، ودعة العراق ، وآثار الاحتلال للطويل .

ووسائلنا الى التربية الجديدة الواجبة هي :

(أولا) الألعاب الرياضية وألعاب الفروسية ، بصفة عامة ، والألعاب الخشنة منها بصفة خاصة ، فتحن أحوج ما تكون الى الروح الرياضية في أخلاقنا وأجسامنا ، ولى تعود الخشونة في الألعاب الخشنة منها كالملاكمة والمصارعة والحركات الخطرة . نحن في حاجة الى أن نتعود كيف نغلب ونُغلب ثم نصمد بعد ذلك للعب من جديد ، وإلى أن نتأكد أن اللكمة أو الصرعة لا تقضى علينا القضاء الأخير ، وكلما خشنت الألعاب التي نمارسها كان التمويض فيها أكبر من نقص الطبيعة والمدنية العريقة .

نحن في حاجة الى سواعد مفتولة وسيقان مشتدة ، تقاوم هذه النعومة التافهة التي درج عليها شبابنا الحديث ، وتحترم اللطافة المصنوعة التي تكاد تتخاذل في الوقفة والمشية والإشارة والحديث ، وتردري المطور والزينة وتصيف الشعور التي تقضى بها العيون في المجامع والطرق .

نحن في حاجة الى الشباب الرياضي المترفع عن سمات الأنوثة . المتعالى على مظاهر النعومة ، الصحيح الجسم والنفس ، المدرب على الصراع والفضال . المتحفز للكبح والترال ، الشاعر بأن الرجولة الواضحة هي أئمن ما يزين الرجال .

واللعب الرياضي لا يكفي ما لم تتوافر له الروح الرياضية ، فالخلق "الاسبور" هو الذي ينقصنا في تصرفاتنا اليومية ، ذلك أننا اكتفينا بالحركات الجسمية تؤديها ، ولم نعن بالملاءمة بينها وبين النفس الباطنة كما صنع الانجليز ، فلم نكسب من الرياضة إلا حائنها التافه الرخيص .

(ثانيا) الإقلال من الترف ولو هيئته لنا وسائلنا المدنية ، فالحرمان الاختياري صرانة على الحرمان القهري ، ونحن في عصر معاجات وتقلبات وهينة الأيام والليالي ، بل رجينة الساعات والحظاظ ، فينبغي أن نقاوم في نفوسنا حب الاستمتاع ولذة الوجدان ، ونفرض عليها ضروبا من الخشونة أكثر مما تفرضه الظروف الراهنة ، تربية للقاومة ودرية على الصبر . ولنا في روح الدين أسوة حسنة ، فالصوم كما قلت تعويد على المشقة وإعداد للحرمان وتمكين للقاومة وتربية للرجولة . ونحن لا نريد أن نفتتح للمالك ولأن تؤلف الامبراطوريات ، ولكنتنا نريد الحياة الكريمة والوقوف أمام التيار الجارف من الخشونة العارمة .

أعرف ناسا أهم كوارث الحرب الحاضرة في نظرهم حرمانهم من المصايف في صيف هذا العام ! لطف الله بهم . فاذا عساهم يصنعون لو كتب عليهم القتال في هجر الصحراء ، ولو جمع بهم من الأصقاع الشمالية الباردة الى جهنم الدنيا وراء الحدود المصرية ؟ كما يصنع الألمان والانجليز على السواء ؟ !

هؤلاء سبة للرجولة ، ووصمة في جبين الوطن يحسن بها المحو والزوال !
(ثالثا) تطهير الفناء والموسيقى والمرح والسبنا من هذه الروح المريضة الذليلة التي

تسودها جميعا . فإن المذيع وحده ينقل إلى أسماعنا في البيوت والطرق والمقاهي من التمتع والتكبر والدفدغة والتخذت ما يكفي لتخدير أشد الأعصاب حماسة ، وأكثرها صلابة .

هاتوا إلى أقوى جيش في العالم ، أردد على سمعه بضعة أيام فقط شيئا مما يذاع في مصر من الأغنيات المريضة من أمثال : "ولما سلمت عليه وخذت إيدك في اديه" أو "ميلت ينجي في الحب ينجي" أو "راضى بلومه وكلامه ولو أنى مظلوم معاه" أو "يا لوعتي يا شقما يا ضنى حاني ... " إلى آخر هذا الغناء المفروض علينا بالليل والنهار ، وأنا كفيلا أن يفت في عضد هذا الجيش ، وأن تصنع به هذه الدغدغة ما لا تصنع وسائل الدعاية كلها من الوهن والفتور ، وأن يستريح ويحس واضعا يده تحت خده مستسلما لخيلات المخدرات ودموع الشجو والأسى !

هؤلاء المطربون والمطربات في مصر يقتلون الشعب خفقا وذوقا ، وهم في ما من من القانون ، بينما هذا القانون يعاقب من يذيعون أخبارا من شأنها أن تحدث الذعر أو تبطل العزائم ، ولا شيء في الدنيا يقتل الرجولة ويميت الهمم ويرخي العزيمة ، ويشيع الانحلال والميوعة ، كهذه الأغانى التي نرغم على سماعها بالليل والنهار .

إنني لأعجب كيف بقي في مصر بعض ذوى الأعصاب المتينة ، وبعض ذوى الأذواق السليمة ، وكيف بقي شيء من مظاهر الرجولة وشيء من حلايم الكرامة ، وهذه الأغانى تسرى في دم الشعب كالسموم ، وتحقنه كالمخدرات .

لو كان لى من الأمر شيء لعاقبت هؤلاء المطربين والمطربات ، بتهمة العمل على بث روح الضعف والوهن في الجمهور ، أو لقدمتهم هدية بخنود لأعداء يغنون لهم ويطنونهم فيفتون في أعضدهم ، ويسلبونهم الحماسة واليقظة ، ويتركونهم سكارى كدمنى الخشيش والأفيون ! (رابعا) دراسة سير الأبطال والعطاء في التاريخ المصرى خاصة والتاريخ العالمى عامة في مرحلتى التعليم الابتدائى والثانوى . ودراسة كفاح الشعوب وأمثلة بطولتها ، فاستجابات الأطفال والمراهقين لهذه المثل استجابات قوية عميقة الأثر في نفوسهم .

(خامسا) وأخيرا يجب أن يكون التدريب العملى على لشجاعة من جانب وعلى الخشونة والكفاح من جانب آخر جزء أساسيا من برامج التربية في البيت والمدرسة ، فنتجربة العملية هي تكفيلة بفرس هذه الروح ، إذ لتصرف ثمرة العادة أكثر من كل شيء آخر .

يجب إذن أن ينجح ذلك التدليل الذى نراه في كثير من البيوت للأطفال ، فهذا التدليل ليس من مصالحتهم في شيء ، والخوفان من بعض الرقائب وصيد يتجمع في الإرادة والخلق ، فينتقى منه الفرد في مستقبل الحياة ، وتنفق منه الأمة في مستقبل الأجيال ما

"س . . ."